متى تنتهي هذه الأحقاد؟

نحن المسلمين لا نعرف التعصب الدينى، وإذا عرفناه مر بنفوسنا خاطرا مساورا، أو وسواسا عابرا، فما بنينا عليه سياسية، ولا أقمنا عليه تقليدا، ولا عرف لنا فى الحياة وجهة!!

وقد أقام اليهود بين ظهرانى العرب والمسلمين أعصارا طويلة، وأعداداً كثيفة، وتوزعتهم جهات متباعدة، لا جهة واحدة.

فكانت تعاليم الاسلام ترعاهم فى غرب افريقيا على شاطئ الأطلسى، وفى شرق القارة على جوانب النيل كما كانت ترعاهم جنوبى الجزيرة العربية فى اليمين، وشماليها فى العراق.

وعلى امتداد التاريخ واتساع الرقعة لم يلق اليهود ذرة من المعاملة الشرسة الغليظة التى عرفها إخوانهم فى أوروبا..

لقد كان العالم المسيحى يصب عليهم جام غضبه، ويلفحهم ببغضائه أينما حلوا.

لم يكن يهود روسيا أحسن حالا من يهود فرنسا، وهؤلاء فى شرق أوروبا وأولئك فى غربها.

ولم يكن يهود انجلترا أحسن حالا من يهود أسبانيا، وهؤلاء فى الشمال وأولئك فى الجنوب.

ثم ظهر هتلر فى ألمانيا أخيرا ففعل بهؤلاء المنكودين ما فعل.

إن التعصب المسيحى داء عياء، وقد كانت المذاهب الدينية الكنسية يضيق بعضها ببعض ويستبيحه فكيف بها فى معاملة الآخرين؟

ولن تبرح ذاكرة العالم مآسى الحروب الصليبية القديمة، ومجازرها المروعة، وقد أصاب المسلمين منها بلاء عظيم.

فلا غرو إذا تطلعت الدنيا جمعاء إلى خلاص من هذا الشر المستطير.

ولا عجب إذا رحبت بطى الصفحة القديمة واستفتحت صفحة املأ بالصفاء، وأندى بالسماحة.

من يكره هذا التحول النبيل؟ إننا نتشوق من أعماق قلوبنا إلى عالم تغمر الحريات أكنافه وتظفر فيه الشعوب بالأمان..

ألا لعنة الله على تجار الحروب، وموقدى نارها.!

كم نود أن يتوطد السلام فى عالم تستقر فيه حقوق الانسان وكرامات الأمم..

لكن هل مستقبل الانسانية يأخذ هذا الاتجاه؟ كلا..

ونحن المسلمين فى هذه الآونة الحاسمة نشعر بأن الآخرين يقيمون كيانهم على أنقاضنا، ويبنون سعادتهم على شقوتنا.

وعندما يضع نفر من الناس خطتهم فى الثراء على ثروة مسروقة، أو خطتهم فى البناء على أرض منهوبة فهيهات أن يتمخض هذا البدء عن نهاية صالحة.

إنه كمسلك أخوة يوسف عندما رسموا الطريق لراحتهم المنشودة فقالوا **﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾** [يوسف: ٩].

هكذا تتعاون الصهيونية والصليبية على إقامة السلام العالمى، ومنع الحروب الدينية أو المدنية..

أسحقوا العرب والاسلام، وأقيموا لبنى إسرائيل دولة كبرى على أطلال هذا الماض الكريه، وبعدئذ سيحظى العالم بالاستقرار والرفاهية.

هذه هى سياسة الآخرين تجاهنا، وهى سياسة حولت الخطب النارية لبطرس الناسك إلى كلمات فيها ليونة الأفعى، وسمها الزعاف..

فهل يلام المسلمون إذا قاوموا هذا الموت الزاحف الحاقد بكل ما يملكون من عقائد وطاقات..

والآن لنكشف القوى التى تحرك إسرائيل والتى تزين للدول الاستعمارية إمدادها بالمال والسلاح.

لقد اجتمع مؤتمر مسكونى للكنائس كلها فى روما تحت رعاية البابا الأكبر.

ماذا كان الهدف من عقد هذا المؤتمر؟

كـان الهـدف إبداء العطف على اليـهـود فى المرحلة التى يمرون بهـا من تاريخهم المعاصر.

كان الهدف عقد صلح حقيقى بين المسيحية واليهودية، يستطيع اليهود بعده أن يتوجهوا بنشاطهم كله ضدنا.

لو كان الهدف من هذا المؤتمر منع اضطهاد اليهود، لانعقد أيام هتلر، أو فى أعقاب حركته العنصرية.

أمـا أن ينعـقـد بعد انتهـاء النازية بعـشرات السنين، وبعد انتصار الدول المشايعة لليهود، ثم يقال: إنه مؤتمر لمنع اضطهاد اليهود! فهذا عبث صغير بالأذهان!.

إن اليـهـود فى وضع سمح لهم باضطهاد غيرهم، فكيف يزعم زاعم أن مؤتمر الكنائس العالمية اجتمع لمنع الأذى النازل باليهود؟

إن المؤتمر للأسف أخذ عنوانا خادعا..

وحقيقته هى دعم العدوان اليهودى ضد العرب، أو الكيد للاسلام وأهله بطريقة جديدة.

وبابا روما والسادة الذين عاونوه تجاهلوا حقوق أهل فلسطين، وأصموا آذانهم عن صراخ اللاجئين، وكل ما عناهم – بعد – هو تدويل القدس، أو بتعبير صريح، طرد المسلمين منها وحسب!.

ولننظر الى عبارات الوثيقة التى أصدرها المؤتمر لنرى العجائب فى تدليل اليهود، والتلطف معهم، والدفاع عنهم.

أى فى معاونتهم على حربنا، وشد أزرهم وهم يهجمون علينا..

تدبر هذه العبارة فى صدر الوثيقة المذكورة «إن الكنيسة – ذلك المخلوق الجديد فى المسيح وشعب العهد الجديد – لا يمكن أن ينسى أنها استمرار لذلك الشعب الذى تفضل الله عليه برحمته الواسعة فى يوم من الأيام بتحقيق عهده القديم موكلا اليه الوحى المذكور فى كتب العهد القديم».

وهذا الكلام واضح الدلالة فى أن المؤتمر يعد الكنيسة المسيحية استمرارا للوجود اليهودى الأول.

ما هذا الذوبان كله؟ ولم ذلك الملق؟

ونتابع عبارات الوثيقة التى صدرت دعما لبنى اسرائيل فى هذا العصر المشئوم:

« .. ولا تنسى الكنيسة أن المسيح ولد – من ناحية الجسد – فى الشعب اليهودى ، وأن أم المسيح، مريم العذراء، والحواريين، وهم أساس ودعامة الكنيسة قد ولدوا أيضا فى الشعب اليهودى، وتضع الكنيسة نصب أعينها ما قاله بولس الرسول فى شأن اليهود الذين هم اسرائيليون ولهم التبنى والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد » (الرسالة الى أهل رومية : ٩ – ٤) .

ولما كان المسيحيون قد تسلموا من اليهود ذلك التراث العظيم فان هذا المجتمع المسكونى يهدف الى التشجيع والتوصية بمراعاة التعارف والاحترام المتبادل تماما بين المسيحيين واليهود والذى سيصبح عميقا عن طريق البحث اللاهوتى والحوار الأخوى » .

أرأيت هذا الذوبان كله؟ وهذا الاسترضاء والاقتراب الناعمين؟

ثم تمضى الوثيقة فتقول : « من الواجب أن نذكر أن اتحاد الشعب اليهودى مع الكنيسة هو جزء من الأمل المسيحى، والواقع أن الكنيسة حسب تعاليم بولس الرسول (رسالة رومية ١١ / ٥) تفتح بعقيدة متينة ورغبة أكيدة فى وجه ذلك الشعب باب الدخول فى سلطان شعب الله كما وطده المسيح . . »

وأخيرا ترشد الوثيقة الى أنه « عند تلقين الدين المسيحى يجب عدم إظهار الشعب اليهودى كأنه ملعون . . الخ » .

وهكذا أمكن بعد عشرين قرنا من حياة المسيح عليه السلام أن يصطلح اليهود والنصارى . .

ولكن علينا وعلى بلادنا وحاضرنا ومستقبلنا .

وإخفاء للضغائن الصليبية العنيفة فى هذه الوثيقة الشاذة أوصى المؤتمر المسكونى بمحبة المسلمين أيضا .

وإعلانا لهذا الحب مضت دولة اسرائيل فى حربها المكشوفة ضدنا . تمدها أمريكا وانجلترا وألمانيا بل أثيوبيا وأوغندا وكينيا، وشتى الدول المسيحية، بما تشاء .

وإنفاذا لهذه الوثيقة وتمشيا مع روحها نجحت مؤامرة الإغضاء من العدوان الاسرائيلى وفشلت كل المحاولات لاستصدار قرار بانسحاب الاسرائيليين من الأراضى التى احتلوها، ولم ينطق أحد بكلمة عطف على العرب!!

ومع الظروف التى جعلت فرنسا خصما لحلفائها السابقين، فان الفرنسيين فى موقفهم الجديد يصرون على بقاء إسرائيل - أى على إفناء فلسطين - وعلى منحها حق المرور فى خليج العقبة وقناة السويس دون عائق!!..

فهل يلومنا عاقل إذا صرخنا نكشف هذا الغل الدفين؟

هل يلومنا عاقل إذا قلنا: إننا نواجه حربا دينية عالن بها اليهود من جانبهم، وعالنت بها الكنيسة فى المجمع المسكونى الأخير؟

إننا لسنا هواة حروب دينية أو مدنية، ولا نحسن الانحراف مع نزعات التعصب الأعمى.

ولو أن يهود العالم أجمعين عاشوا فى قلب العالم الاسلامى مواطنين شرفاء ما أساء إليهم أحد، بل لأخذوا مكاناتهم العلمية والسياسية جنبا الى جنب مع المسلمين والمسيحيين الذين يحيون بيننا آمنين وافرين!.

بيد أن الهجوم المسلح الذى شنه علينا اليهود أخيرا، وأعانتهم عليه المنظمات الدينية والسياسية الغربية يعطى القضية وجها آخر، ويميط اللثام عن لون خسيس من الأحقاد التى لابد أن تواجه باستماتة وبأس، وأن تحشد فى صدها جميع القدرات الروحية والعكسرية..

ومابد - والحالة هذه - من جعل الاسلام قاعدة الدفاع، والاستعانة بالروح الاسلامية فى طرد الغزاة المحدثين، كما طرد أسلافهم أو أشباههم من الصليبيين الأقدمين.

ولا حرج علينا أن نستعين بكل سلاح أو نرحب بكل عون.

لحساب من يقال للعرب: إن الحرب الدائرة فوق أرضهم لا علاقة لها بالدين، وأنها مطامع بشرية محددة؟

ولحساب من توصف الحروب الصليبية القديمة بأن الدين لم يكن مشعل نارها، ولا محرك أحقادها، بل كانت غزوا استعماريا فقط؟..

لحساب من يشاع هذا الافك وتوضع الحجب على وجه الحقيقة حتى لا يراها أحد؟..

إن المستفيد من إقصاء الاسلام عن المعركة، وإيهام أتباعه أن العقيدة لا دور لهـا فى هذه المأساة هـم اليـهـود ومن خلفـهـم من ورثة الضـغـائن فى أوروبا وأمريكا..

والخاسر هو الاسلام والمسلمون والعرب والمستعربون.

وعندما يدفن الإسلام فى زوايا الإهمال فستدفن قبله فلسطين وما حولها من بلاد.

والغريب أن ذلك ما ترتفع به عقائر، وتخطه أقلام يجب أن يعرفها الناس وأن يحذروا حملتها.

* * *

جذور المعركة القائمة..

أهو وفاء للعروبة أن يصر نفر غير قليل من رجال السياسة وأصحاب الأقلام على هجر الإسلام وسحب ذيول الصمت على اسمه ووحيه وحقه حتى لا يعتصم به أحد؟؟

ما هذه العروبة الغريبة؟

إن من المتناقضات الجديرة بالكشف أن هناك أناسا يتحمسون للقومية العربية ومع ذلك فهم يكرهون اللغة العربية!!

ودعك من أنهم يعجزون عن الكلام بها، ولكن المثير حقا أنهم فى مجال الاذاعة يؤثرون الحديث بالعامية ويفضلونها على الفصحى، ويضيقون بقواعد النحو والصرف بله ألوان البلاغة وفنون التعبير..

وهم ساخطون على الشعر القديم وبحوره المنغومة وموسيقاه الجزلة، ويفضلون عليه هراء يسمونه الشعر المنثور أو النثر المشعور.

وهم يرفضون بعنف أن تكون اللغة العربية لغة العلم والدرس فى كليات الطب والصيدلة والهندسة وغيرها، ويتحمسون لبقاء الإنجليزية أو أية لغة أخرى بدل العربية!!

وهم يغلبون على المجامع الأدبية والعلمية واللغوية ويستطيعون بهذه الغلبة محو الطابع العربى واللفظ العربى من آفاق نشاطنا الحديث كله أو جله، حتى لنخشى نحن المخلصين لتاريخنا وثقافتنا، أن تزول صبغتنا القومية على مر الأيام.

ولقد تساءلت: أهذا النفر المشتغل بالقومية العربية أو المتزيى بزيها، صادق فيما يزعم؟

إنه لو كان عربيا حقا، وكان يدين بغير الإسلام ما أكن لمحمد ﷺ، وتراثه هذه البغضاء الرهيبة..

وإذا لم تكن الأمجاد العلمية والقانونية والحضارية التى اقترنت بالرسالة المحمدية فخرا للعرب فبماذا يفخر العرب؟

الحقيقة التى ينبغى أن تقرر - أو التى آن أن تكشف - أن هذا النفر من الناس الذين علا صياحهم فى الأيام الأخيرة ليسوا منا فى قليل ولا كثير!

إنهم نبت استعمارى مغشوش الضمير والتفكير..

يهمه نشر الشيوعية وحسب أن كان من أذناب الجبهة الشرقية..

أو يهمه نصر الأسلوب الغربى فى الحياة إن كان من أذناب الجبهة الغربية..

وقد اتفق هؤلاء وأولئك على مخاصمة الاسلام ومطاردته فى ميدان التربية، والتشريع، والتوجيه الخاص والعام، وبناء تقاليد اجتماعية لا تعترف بالحلال والحرام، والصلاة والصيام، وغير ذلك من آداب الدين ومعالم التقوى..

ثم وقعت هزيمتنا الشائنة فى يونية سنة ١٩٦٧ وكانت اللطمة من العنف والعمق بحيث يفيق منها المخمور ويؤوب الشارد.

بيد أن الذين مردوا على النفاق لم يعرفوا إلى التوبة طريقا، فأخذوا يهرفون بعدها بكلام كذب لا يزيد الأمة إلا خبالا، ولا ينقلها من كبوتها الحاضرة إلا الى كبوة أوسع وأشنع..

كان السبب الأول والأخير لهزائمنا المتلاحقة أيام اليهود فقدان العقيدة الحارة والأخلاق الحارسة، ونضوب معين الإيمان من قلوب تعلقت بالشهوات ونسيت المثل الرفيعة..

كان السبب الأول والأخير لهزائمنا أننا كنا أحفادا أخساء لأجدادنا الكبراء، فما قلدناهم فى طلب الآخرة وحب الشهادة، ولا قلدناهم فى أداء الفرائض، والتزام الفضائل، واحتقار الدنايا، واطراح الأهواء..

ولنفرض أن جمهرة الجنود طيبة المعدن، فما جدوى ذلك إذا كان قيادها فى أيدى قوم يذكرون أنفسهم ولا يذكرون الله؟ أو فى أيدى قوم يحتقرون دينهم على حين يحترم خصمهم دينه؟

وحلت الكارثة.. وشرع الثرثارون يذكرون السبب!!

وغاظنا أن يتواصى الجميع بقول كل شئ إلا الحق، كأن التذكير بالاسلام جريمة الجرائم،. أو كأن العودة اليه هى المحظور المخيف..!!

ومن المضحكات فى تعليل انتصار اليهود أن جيشهم كان عصريا! كأنما

تكونت الجيوش العربية فى القرن الماضى، ولم تتكون فى السنوات السبع الأخيرة!!

ومن طرائف التعليل كذلك عزو انتصار اليهود إلى تفوقهم فى «التكنولوجيا» كأن هزائم الأمريكيين أمام ثوار «فيتنام» سببها أن الفيتناميين أبرع من عدوهم فى هذه «التكنولوجيا».

إن المراد من هذا كله، الصمت عن أثر العقيدة فى كسب المعارك..

ولا أعرف عاقلا ينكر آثار القوى المعنوية فى إحراز النصر، ولكن لما كانت العقيدة عندنا هى الاسلام، ولما كان ذكر الاسلام بغيضا عند هؤلاء الكاتبين فقد فضلوا طول اللغو على ذكر الحق توا.

ومؤامرة الصمت هنا تواطؤ متعمد على إماتة حديث الدين، واستبقاء الجمهور بمعزل عنه..

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

[محمد: ٢٦ – ٢٨]

* * *

وتنشر الصحف فى التعقيب على المعركة ونتائجها كلاما تتجاهل فيه الطبيعة الدينية لقيام إسرائيل، وتتجاهل فيه مقررات المؤتمر المسكونى العالمى المنعقد فى روما، وتوصياته الحانية على اليهود.

ومضيا فى إبعاد الاسلام عن النزاع كله يقول الأستاذ «محمد حسنين هيكل»: كان بين الأسئلة المطروحة فى هذه المناقشة مثلا: هل القضية فلسطينية بالدرجة الأولى، عربية بالدرجة الثانية؟ أم هى عربية بالدرجة الأولى، فلسطينية بالدرجة الثانية؟

وبالتالى: هل يحتمل شعب فلسطين أساسا مسئولية المواجهة ضد الاغتصاب الإسرائيلى لوطنه؟ ثم تساعده الأمة العربية فى هذه المسئولية؟

أم أن المسئولية أساسا على الأمة العربية وفى الطليعة منها بحكم انتمائه الوطنى شعب فلسطين؟؟

وهذا الكلام خطأ كله! فرضان لا ثالث لهما!! هل النزاع فلسطينى أم عربى؟ وأين الاسلام والمسلمون؟

لقد تناساهما الكاتب عن عمد! واليهود لا يطلبون أفضل من هذا التفكير لإنجاح سعيهم..

ومع أن قضية فلسطين دينية عند أتباع التوراة والانجيل والقرآن..

ومع أن أمر المسجد الأقصى يهم المسلمين فى كل قارة، كما يهمهم أمر المسجد النبوى مثلا، ولا يزعم أحمق أنه يهم السعوديين وحدهم..

ومع هذا كله، فان المشكلة ليست فى جر المسلمين قاطبة الى المعركة، المشكلة أن يقتعد الدين مكانته العتيدة بين العرب أنفسهم، وأن يقاتلوا عدوهم عن عقيدة مهيمنة واستماتة مؤمنة.

ويوم يعود العرب - فى قطر واحد من الأقطار المحيطة باليهود - إلى الاسلام، فان دولة واحدة من دولهم ستؤدب دولة العصابات!

ويوم يعجز ٣٠ مليون مسلم فى مصر عن طرد هؤلاء المعتدين فبطن الأرض خير من ظهرها.

ويمضى الكاتب فى تدوين الفكر العربى، وإتاهة العرب عن طريق الرشد فيزعم أن احتضان الأمريكان، وحلفائهم لليهود مسألة غامضة تحتاج إلى دراسة علمية!!

أما الصبغة الدينية المفضوحة لهذه العلاقة، أما الأحقاد الصليبية المتفجرة ضدنا، أما الطبيعة الروحية للولايات المتحدة والطبيعة الكاثوليكية لدول أمريكا الجنوبية، فهذا كله يمر عليه الكاتب كأنه لا يدريه ولا يسمع به!!

والغرض؟ إبعاد الصبغة الدينية عن الطرف الآخر، لكى لا يفكر أحد فى إضفاء الصبغة الدينية على الكفاح عندنا.

وأسمع إليه يتساءل: «ما هى أصول التاريخ اليهودى؟ ما علاقة اليهودية بالصهيونية؟ ما علاقة الدولة فى إسرائيل بالأقليات اليهودية فى العالم كله»؟

ويجيب: «ليست هناك مراكز ومعاهد بحث كافية تعمل وتنتج باللغة العربية»!!

أقرأت هذا الهزل..

وإلى أن تنشأ هذه المعاهد فى بلادنا ثم تنشر بحوثا جامعية فى حقيقة العدوان اليهودى فلعينا نحن المسلمين إبعاد الاسلام عن المعركة!

وربما نشرت هذه البحوث فى ظل السلطات اليهودية المنتصرة على العرب التائهين أو الباحثين عن الحقيقة!

ان اليهود كما قلت لا ينتظرون من وسائل الاعلام لدينا أن تخدمهم بأفضل من هذا التفكير..

ويمضى الكاتب فيتساءل: «ما هى حقيقة الصلة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، والى اى مدى ارتباطهما»؟.

وبعد أن يعرض عدة إجابات ليس بينها أى ذكر لدين ما يقول: «الحقيقة فى ظنى تكمن فى نقطة ما وسط هذه الأقوال، ولابد من بحث علمى عنها»!.

بحث علمى عماذا؟

ولا أريد إطالة التعليق على هذه الأفكار، فان الأمر لا يحتمل الميوعة ولا التسويف.

إن على المسلمين أن يستيقظوا ليدافعوا عن دينهم وأرضهم وتاريخهم فى وجه حرب قذرة تأخذ طابعا دينيا مكشوفا لا ريب فيه.

إننا نواجه حربا دينية تستهدف اجتثاث جذورنا، والتطويح برسالتنا ومكانتنا.

أما جعل الحرب دفاعا عن القومية العربية بعد تجريدها من الدين فهو منته يقينا إلى إضاعة الكيان القومى واللغة العربية على سواء.

لن يحمى العرب إلا الإسلام، يوم يعتصمون به خلقا وشرعا، وسيرة، ونظاما..

أما مع أوضاعهم الشائعة اليوم فالأمل بعيد بعيد..

* * *

هذا هو الطريق

الفقر الحقيقى فى الأمة الاسلامية الكبيرة يرجع إلى هذا الشلل الغريب فى الهمم والمواهب، وهذا التخلف السحيق فى مجال الإنتاج والإجادة.

ثم إلى ذلكم العبث بمعنى الإيمان، والنكوص عن منطقته.

إلى جانب تعلق وضيع بالشهوات، ونهمة بادية الى الدنيا!

وما نصف خصومنا بانهم يكرهون الحياة وملذاتها، بيد ان الأمم القوية تبلغ ما تهوى بوسائلها الخاصة، أما الأمم الضعيفة فهى تلهث وراء غيرها، أو تتعلق بركابهم تعلق المتسلقين بمركبات النقل، أو تعلق المتسولين باذيال السادة.

والنهوض الحقيقي هو زوال هذه العلل، وفناء جراثيمها، وقدرة الأمة على الاستغناء بعلمها وإنتاجها، والاستهداء بايمانها وفضائلها، والاستعلاء على متاع الدنيا بحيث تأخذ منه بقدر، وتنصرف عنه متى تشاء!

ويؤسفني التصريح بأن الشعوب الاسلامية، حتي يومنا هذا، لم تبدأ نهضة صحيحة، وأن مظاهر التقدم التى نراها أو نسمع عنها هى امتداد لنشاط القوى الكبرى في العالم اكثر مما هى تطلع المتأخرين للتقدم..

فالغرب الصليبى يصطنع شعوبا شتى لخدمة مآربه ويمدها بكثير من عونه المادى وقليل من تقدمه الحضارى.

والشرق الشيوعى ينافسه فى ذلك الميدان، ويحاول الاستفادة من أخطائه، أو يحاول ميراثه إذا انتهى فى مكان ما.

وجمهرة المتعلمين أوزاع، وبعضهم يؤثر النمط الغربى فى الفكر والسلوك وآخرون قد أعجبتهم الماركسية فاصطبغوا ظاهرا وباطنا بنزعتها.

أما الذين يتشبثون بالعقائد والفضائل الاسلامية ويريدون بناء المجتمع الكبير على دعائم الوحى المحمدى فقلة غامضة فى الناس، ولا اقول منكورة الوجهة منكودة الحظ.

هب أن ثورة قامت فى جنوب اليمن تجعل الحياة الصينية أو الروسية مثلها

الأعلى، أتكون هذه الثورة نهضة إسلامية؟ أم تكون نجاحا للفكر الشيوعى العالمى؟؟

من أجل ذلك قلت: إن الشعوب الاسلامية لم تبدأ بعد نهضة صحيحة، تكون امتدادا لتاريخها، وإبرازا لشخصيتها أو نماء لأصلها وتثبيتا لملامحها.

ومن الغلط تصور أنى أحرم الاستفادة من تجارب الآخرين ومعارفهم!!

كيف وهؤلاء الآخرون ما تقدموا إلا بما نقلوه عن أسلافنا من فكر وخلق ووعى وتجربة..؟

إن دولة الخلافة الراشدة اقتبست فى بناء النظام الاسلامى من مواريث الروم والفرس دون غضاضة.

وعندما آكل أطعمة أجنبية أنا بحاجة إليها فالجسم الذى نما هو جسمى، والقوى التى انسابت فى أوصاله هى قواى!!

المهم عندى أن أبقى أنا بمشخصاتى ومقوماتى!!

المهم أن أبقى وتبقى فى كيانى جميع المبادئ التى أمثلها والتى ترتبط بى وأرتبط بها، لأنها رسالتى فى الحياة، ووظيفتى فى الأرض.

هذا هو مقياس النهضة، وآية صدقها أو زيفها، فهل فى العالم الإسلامى نهضات جادة تجعل الاسلام الحنيف وجهتها والرسول الكريم أسوتها؟.

أنا هنا شديد الحرص على جعل البناء الجديد ينهض على هاتيك الدعائم.

واذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعى، وننتفع من غيرنا غيرنا من آفاق الحياة العامة، فليكن ذلك فى إطار صلب من شرائعنا وشعائرنا.

فانه لا قيمة لأحدث الآلات إذا تولى إدارتها قلب خرب، ولا قيمة لأفتك الأسلحة إذا حاول الضرب بها فؤاد مستوحش مقطوع عن الله مولع بالشهوات.

إن بناء النفوس والضمائر يسبق بناء المصانع والجيوش وهذا البناء لا يتم إلا وفق تعاليم الاسلام.

تنشئة تصوغ الأجيال الجديدة، وتقاليد تحكم العلاقات السائدة، ورعاية ظاهرة وباطنة للعبادات المفروضة، ومعالنة جازمة بما فى الدين من أهداف، ومقاطعة حاسمة لما يعترضه من مسالك.

وكل بناء معنوى للأمة يتنكر للإسلام، أو يخافت بذكره، أو يغض من شأنه، فهو مرفوض جملة وتفصيلا.

ولقد جربنا جعل مظاهر المدنية فوق باطن فارغ مظلم فماذا صنعنا؟ صنعنا ناسا: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ..** ﴾ [المنافقون: ٤].

وهذا اللون من الناس فاشل فى سلمه، مخذول فى حربه، ما تسانده الى غاية أرض ولا سماء.

البناء الحقيقى للنفوس يستهدف أمرين جليلين:

اولهما إسلامى بحت يحرك المسلم من يقظة الفجر الى هدأة الليل بحماس العقيدة، وطهر الصلاة، وشرف الاخلاص وحب الله ورسوله.

وكلتا الجهتين الشرقية والغربية تكره ذلك الأمر، وتأبى أن يأخذ الاسلام طريقه فى الحياة بهذا الوضوح.

والأمر الآخر حيوى بحت، أساسه التفوق العلمى والعملى فى كل أفق امتدت اليه الحضارة الحديثة من استصلاح التربة الى غزو الفضاء!

ولنكن صرحاء! إن هذا التفوق لا يولد من تلقاء نفسه، ان التبرير فى هذا المجال يتطلب رغبة فى المعرفة، وشوقا الى المجهول، وعزما على اقتحام كل عقبة، وهذه المشاعر لا تلدها إلا عقيدة مكينة!

وإذا كانت الحاجة أم الاختراع كما يقولون فإن العقيدة المسيطرة أقوى من الحاجة فى الاندفاع والتحمل واستشفاف الغيوب!

إن الجندى المؤمن يرمق الظلام فى جنح الليل بطرف يكاد يخترق سدوله، ويبحث عن ألف حيلة لمقاومة العدو ودحره.

والعامل المؤمن يجفف العرق، وينفى عن نفسه التعب، لأنه ببواعث الحب لا القهر، يريد خدمة أمته وإعلاء رسالته.

والحزن فى شئون المسلمين أنهم من عشرات السنين لا يمكنون من الحياة وفق إيمانهم الأثير، وأنهم – أيضا – يلفظون كل ما يعرض عليهم من إيمان بديل.

ونتج عن ذلك أن أعمالهم الخاصة ونهضاتهم العامة تولد ميتة، وأنهم إن تحركوا ففى مكانهم!!

وقد تحركت اليابان منذ قرن في موكب نهضة صناعية عارمة، ونجحت حركتها من هذا التدافع اللعين بين ما يفرض على الشعب من خارج، وما يهفو إليه من داخل فماذا كانت النتيجة؟

أضحت أمة من أنجح أمم الدنيا، ولا تزال برغم هزيمتها في الحرب الأخيرة أمة مرهوبة العزم، إن لم يكن في صناعات الحرب ففي صناعات السلام.

أما العالم الاسلامي خلال هذا القرن فقد رزق بحكام يريدون محو دينهم أو تشويه صلته بهذا الدين، فكانوا شؤما على يومه وغده.

إن النهضة الحقيقية هي التي تفلح في استثارة قوى النفس، وفي جعل الأمة على اختلاف طوائفها كخلية النحل نشاطا ونظاما.

ولنزد الموضوع جلاء.

لقد نشأ عن الانفكاك بين العقيدة والعمل عجز رهيب في أداء الأعمال العادية حتى ليخيل إلى أن عوام المسلمين أصبحوا دون غيرهم من الخلق في نواحي الانتاج المادي والأدبي.

وكثيرا ما كنت أذكر قول أبي الطيب المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسانا وإجمال

فأحس مقدار هبوطنا عن المستوى الانساني الرفيع في الإتقان والإجادة!!

إن النجاة من السقوط قد تكون شيئا مقبولا، ولكن ليس كل نجاح يحسب تفوقا. قد يبدأ إنسان من العرج ويستطيع السير، ولكنه لا يمنح جائزة بتاتا في العدو لمجرد القدرة على المشي.

والمتنبي يحتقر أهل زمانه لأنهم فقدوا ملكة الإجادة ولا يحسنون فعل العظائم.!!

فكيف لو رأى المعاصرين لنا من موظفين وعمال في كل شأن دق أو جل.

إن هؤلاء - لانعدام بواعث الايمان والتقوى - تعوج في أيديهم الأعمال المستقيمة فلا يصلون بها الى المستوى المقبول بله مستوى النبوغ والعبقرية.

راقبت يوما بعض الناس الذين تكثر دعاواهم ولا تؤمن بلاياهم، ثم عدت من نظرتي إليه وأنا أضع يدي على سبب مبين من أسباب تأخرنا.

نظرت إليه فوجدت العمل يخرج من بين يديه ناقصا غير تام، شأنها غير جميل، ووجدته لا يأسى على ذلك، ولا تحركه أشواق الى إدراك ما فاته، وبلوغ مرتبة أفضل.

فعلمت أنه إنسان تنقصه موهبة الاتقان، وأن أمامه أشواطا واسعة من التدريب والعلاج حتى تكسب يده المهارة المطلوبة وتستحب نفسه الاجادة والتفوق.

واعدت النظر مرة أخرى فى سلوكه فرأيته يطلب على عمله الناقص ثمنا كبيرا ويرتقب من غيره التقدير المضاعف.

أو هو يفرض على الآخرين مطالبه مهما فدحت دون تقديم مقابل معقول.

فاحسست أن له طبعا جشعا كثير التطلع الى طيبات الحياة. وليته يتوسل إلى مطامعه بجهد مبذول مقدور.

كلا، إنه من الناحية النظرية ضعيف الكفاية، ومن الناحية النفسية ضعيف الأمانة، فأى بلاء هذا؟

أمثال هذه العلل هبوط حقيقى بالمستوى الانسانى. ونزول مؤكد من مرتبة الإحسان التى يفرضها الدين، ويبنى ترتيبه على تحصيلها.

إن الحصاد الغالى للجهد البشرى بعد طول الكدح فى هذه الحياة، أن يخرج الانسان من هذه الدنيا بثمرة واحدة هى «العمل الحسن».

وذلك ما اكدة القرآن الكريم عندما قال: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك: ٢].

وقال: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٧]

فاى عمل حسن لامرئ تخرج الأعمال من بين أصابعه وكأنما أجهض عنها فهى كالسقط الذى لم تكتمل ملامحه!

واى عمل حسن لامرئ منطلق الرغبات كالطفل المدلل يطلب فقط، وعلى الدنيا ان تلبى!!

إن النجاح الكبير فى هذه الحياة وعند الله أن ننمى عقولنا وقلوبنا تنمية

توفى على الغاية، والله جل شأنه يقول: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[الانعام: ٤٨]

الإيمان والإصلاح قرينان لا ينفكان.

وليس من الإصلاح المنشود المفروض أن يكون الإنسان غير مأمون على إجادة واجب أو غير مأمون – إذا أجاده – على المغالاة فيه، وطلب مكانة لا يستحقها عليه!!

ومرة أخرى نقول: إن إعادة الحياة الى العقيدة الاسلامية لتحتل مكانها فى الضمير ثم الى الشريعة لترسم خط السير فى المجتمع الكبير، هو وحده طريق النهوض الصحيح.

* * *